معركة بلاكلافا

من اعظم الحروب في القرن الماضي حرب روسيا والدولة العثمانية المعروفة بحرب القرم . واشهر معارك تلك الحرب معركة بلاكلافا وهي التي نظم فيها تنيسون الشاعر الانكليزي قصيدته المشهورة ولا يزال جمهور الانكليز يتغنون بمدح ابطالها الذين ذهبوا ضحايا البسالة والخطاء معاً . وهاك وصفها من قلم جندي قاتل فيها وكان احد الافراد القلائل الذين سلموا من القتل وهو لا يزال حيًّا يرزق . قال

كان اليوم الخامس والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٨٥٤ وكانت جنود الدول المتحالفة وهي انكلترا وفرنسا وتركيا تحصر سبستبول وقد اتخذت بلاكلافا قاعدة لاعمالها . وبلاكلافا هذه قرية في شبه جزيرة القرم على البحر الاسود جنوبي سبستبول . وكان على مقربة منها جيش روسي عدته ثلاثون الفاً وغايته رفع الحصار عن سبستبول باجلاء الانكليز عن بلاكلافا . فزحف علينا واستولى على بعض المدافع التي في معاقلنا وحاول نقلها من اماكنها فصدَّه السر جيمس سكارلت عن عزمه باورطته المسماة "حتى يريجايد" . ولكن المدافع كانت لا تزال في خطر فأمر اللورد لوكان اورطة المشاة "ليط بريجايد" ان تحمل على الروس وتمنعهم من اخذها

فحمل فرسان هذه الاورطة حملتهم المشهورة التي خلدت اسمهم على صفحات تاريخ الحروب وفي دقائق قليلة قتل نصفهم . وكان غرض الروس كما قلت سابقاً الاستيلاء على بلاكلافا ولكنها كانت معزَّزة بالحصون والقلاع وكان في ميناها بارجة انكليزية تنتظر اول اشارة لتمطر الاعداء وابلاً من قنابلها

وكنا قد عقدنا النية على مهاجمة الروس في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من الشهر ولكن لم يتمَّ لنا ما عقدنا النية عليه حتى اليوم الذي نحن بصدده . وكنا على الدوام وقوفاً مجانبين جيادنا لنحتز ركوبها عند اول اشارة ولا نعود الى معسكرنا الاَّ وقد أمسينا في الليل . وكانت عادة الفرسان في اوان الحرب ان يباكروا خيلهم قبل بزوغ الفجر بساعتين فعملنا كذلك يومئذٍ وكان الهواء بارداً واجواً مكفهرّاً قطريراً

وبينما نحن نتأهب للهجوم وقد نفد صبرنا من الانتظار اذا بصوت البوق يشق الفضاء معلناً هجوم الروس علينا فبادرنا نحو العاقل الثلاثة التي وجَّه الروس حملتهم اليها وكان فيها

حفنة من طوبجية الانكليز والاتراك وما هو الاَّ القليل حتى كانت قنابل الروس تساقط علينا او تمرُّ فوق رؤوسنا

وكنت على ظهر جوادي أرقب حركات صفوف الروس الامامية وهي تتقدم منا وقنابلنا تفتك بها حتى سقط كثيرون منها قتلى وجرحى . ولم يمضِ الاَّ القليل حتى تبين لنا انها استولت على معاقلنا واستحكاماتنا وما فيها من المدافع ووجهت رصاصها الينا . ولم نكد نتولى عليها حتى رأينا فلول الترك الذين فيها قد فرُّوا منها مختلطين اختلاط الحابل بالنابل وسدَّدوا خطواتهم الينا وهم يصيحون "بونو بونو جوني" وجوني هو الاسم الذي كانوا يسمون الانكليز به في تلك الحرب فكانت جنودنا تجيبهم "نو بونو" وهي تحرّق الارُّم عليهم

وكانت البطرية الاولى من الطوبجية الملكية قد مرَّت بنا هاجمة على الروس ثم لم تمضِ دقائق كثيرة حتى رأيت قائدها محمولاً الى الساقة وقد بترت ذراعهُ او ساقهُ لاني لم أرهُ جلياً . ولما رأى ضباطنا ان الروس شرعوا يطلقون النار علينا من الاستحكامات التي اخذوها منا امرونا بالتقهقر الى معسكرنا في بلاكلافا فتقهقرنا ومدافع الروس تضرب في اقفيتنا وفرسانهم يجدُّون في اثرنا . فتأهبت اورطة "الفي بريجايد" لمصادمتهم بقيادة السرجيمس سكارلت وهي من الفرسان ايضاً . وكان فرسان الروس قد اطلقوا الاعنة لجيادهم فسارت تنهب الارض وراءنا واذا بجنود "الفي بريجايد" قد فاجأتهم فلما تبينوها خفقوا سيرهم ولكن جنودها وعدتها ٦٠٠ فارس اغارت عليهم وبددت شمل ثلاثة آلاف منهم واخترقت صفوفهم ومدافعها تحصد فيهم قتلاً وجرحاً

اما نحن فرسان "الليط بريجايد" فكنا منحرفين كثيراً الى الميسرة فلم نرَ تفصيل الحملة وانما رأينا اوائلها ثم لم نعد نرى شيئاً بل كنا نسمع جلبة القتال فقط ولو اننا هجمنا حينئذٍ على ميمنة الروس لكنا أبدنا جموعهم لا محالة

ثم سكنت الجلبة فظننا ان المعركة انتهت وأُمرنا باحتلال بقعة مرتفعة في صدر الوادي ففعلنا ثم ترجلنا ووقفنا كلٌّ وجوادهُ مدة قصيرة . وبينما نحن كذلك اذا بانكيتن نولان قد اقبل وهو ينهب الارض بجواده ودنا من اللورد لوكان قائدنا وكلمهُ فلم اعلم ما قال لهُ لاني كنت بعيداً عنهما وانما اعلم اننا أُمرنا أن نمتطي جيادنا ونهجم على الروس . فأُطعنا الامر ولكننا لم نتقدم مئتي خطوة او ثلاث مئة حتى اسلانا الروس ناراً حامية من ثلاث بطريات في كلٍّ منها عشرة مدافع بطرية عن يسارنا وبطرية عن يميننا وبطرية في اسفل الوادي امامنا وكانت كلها من مدافع الميدان واقوى من مدافعنا . فتفتكت بنا فتكاً ذريعاً واول رجل

قتل منا كان الكبتن نولان الذي نقل الامر بالحملة صواباً او خطاه فقد اصابت شظية قنبلة صدره فسقط عن جواده وهو يصيح ولكن احدى قذيفه بقيت قائمة في الركاب فجرّهُ جوادهُ مسافة طويلة

وكانت فرساننا تحمل على الاعداء في ثلاثة صفوف الاول بقيادة اللورد كاردیغان والثاني بقيادة الكولونل دوجلاس والثالث بقيادة اللورد ياجت . وكان قسم من جنود الصف الاول يحملون السيوف وبقية الجنود تحمل الحراب والمسافة بين المكان الذي خرجنا منهُ وبين ابعد مدافع الروس عنّا نحو ميل وربع . وكانت النيران المصوبة علينا من الجانبين شديدة الستير حتى اننا لما بلغنا اسفل الوادي لم يبقَ منا الاَّ نحو مئة فارس على ظهور خيلهم

وعند وصولنا الى المدافع وجدنا ان الطوبجية ربطوها الى الخيل وجعلوا يتقهقرون بها رويدًا رويدًا فطرنا اليهم واحدقنا بهم من كل جانب وحينئذٍ جرت افظع وقائع المعركة فان الطوبجية حاولوا الفرار بالزحف تحت مركبات المدافع ولكن سائقي خيلها لم يكن لهم من الوقت مهلة ما يتزجلون عنها فاعملنا فيهم سيوفنا ورماحنا وتحوَّل بعضنا عنهم الى الطوبجية وفعلوا بهم ما فعلناهُ باخوانهم حتى لم ينجُ من رجال البطرية نفير ولم يبقَ حصان حيّ

وبعد استيلائنا على المدافع بقليل رأى ضباطنا الروس يجمعون جموعهم ويوجهونها الينا ليحرموننا ثمرة انتصارنا . وحانت من اللورد ياجت التفاتة الى صدر الوادي وراءنا فرأى جيشاً من رماحة الروس فظنهم من الانكليز لبعدهم فنادى قائلاً ها قد اتتنا النجدة . فصاح بعض رجالنا قائلين انهم روس فادرك اللورد حرج الموقف اذ ذاك ورأى ان لا مناص لنا من ان نتقهقر مخترقين صفوفهم اذ لم نكن لنتوقع مددًا ولم يكن في طوقنا جرُّ المدافع . ولو بقينا حيث كنا لوقفونا اربًا واجرى بنا ما جرى بسائر اوراطنا

فادرنا روس خيلنا واطلقنا لها العنان ولكنها كانت خائرة القوى من فرط ما لاقت من العناء فلم نستطع حثّها على الجري الشديد . ولما دنونا من الروس رأيت ضباطهم يشيرون اليهم بسيوفهم ان يطبقوا علينا ويكتنفونا حتى لا نجد لنا مخلصاً ولكن لاح لي انهم لم يدركوا مراد ضباطهم او انهم كانوا يخشون ان يصدعوا بامرهم . فاخترقنا صفوفهم ودار الطعن والضرب بيننا وبينهم كلَّ ذلك ومدافعهم مصوبة الينا تحصد فينا بلا تمييز بين عدوٍّ وصديق فاضرَّت بهم اكثر مما اضرَّت بنا لكثرتهم بالنسبة الينا

اما نحن فلم ينجُ منا الاَّ كلُّ طويل العمر ولم يجدنا بعض خيالة الفرنسويين في الآخر ويكشفوا بعض مدافع الروس ما نجا منا نفير . وكان عددنا بين ست مئة وسبع مئة فقتل منا

٣٤٧ وقتل من خيلنا ٤٧٥ فرساً وجرح ٤٣ نبقي الاحياء من فرسانها في الوادي حيثما عدنا ثم عادوا الينا فرادى وازواجاً

ورأيت رفيقاً لي وانا عائد وهو يكاد يقع عن ظهر جواده فسألتهُ عن امره فقال ان رمية اصابت رجلهُ فقلت لهُ تمكَّن في سرجك واخذت بلجام فرسهِ بيدي وسرت مع بقية الفرسان فنجونا كلانا وأرسل هو الى المستشفى ثم اتاني منهُ كتاب بعد حين يقول فيهِ انهُ بلغهُ انني رُقيت وسامير جنرالاً فاجبتهُ نعم اني على الطريق قد صرت اونباشياً

ولا يزال الخلاف قائماً على كيفية وقوع الخطاء في الامر وعلى ما اذا كان البوق قد امر بالحملة ام لا . فقد كان الامر اولاً "سيروا" ثم "تقدموا الخبب" ولما رأى رجالنا انهم باتوا هدفاً للنيران الآكلة لم يطيقوا صبراً على تلك الحال فاطلقوا لجيادهم الاعنة وحملوا تلك الحملة الهائلة . ولكني لم اسمع البوق يأمر بالحملة ولا سمع ذلك غيري من الذين شهدوا المعركة ولا يزالون احياء يرزقون

واسهب الكاتب في وصف فظائع تلك المعركة وشراسة الانسان اذا ثارت فيهِ القوة الغضبية وقلة جزاء الدول لابنائها الذين يسفكون دماءهم في سبيلها . وذلك كلهُ من الامثلة الكثيرة على فظاعة الحروب وعلى جنون الناس الذين لا يزالون يعوّلون عليها للفصل في خصوماتهم

وراثة الذاكرة

ملخص مقالة نشرت في مجلة القرن التاسع عشر بقلم السر فوربس فيلبس

قلَّ ترى احداً الاَّ ويخبرك انهُ زار مكاناً لم يزرهُ من قبل او رأى منظراً لم يرهُ من قبل فلم تدهشهُ تلك الزيارة ولا تلك الرؤية كأنهما شيئان عاديان لا جديدان فيقول في نفسهِ "يلوح لي اني عرفت هذا المكان ورأيت هذا المنظر قبلاً فوراء تلك الهضبة قرية وفي آخر هذا الشارع ساحة" ويكون كذلك . واني قاصٌّ ما خبرتهُ بنفسي من هذا القبيل فاقول

زرت رومية منذ عشر سنوات لاول مرة فلما رأيت بعض آثارها القديمة المشهورة مثل حمامات كركلاَّ والكولوسيوم (مشهد الالعاب الرومانية) وسراديب كالكستوس وغيرها خيل لي اني رأيتها قبلاً فلذلك لم تدهشني رؤيتها فقلت لعلَّ السبب في ذلك اني رأيت صورها